https://farid.ps/articles/remembering_aaron_bushnell/ar.html

"هذا ما قررت طبقة حكامنا أن يكون طبيعيًا": تذكر آرون بوشنيل

في 25 فبراير 2024، سار طيار في سلاح الجو الأمريكي يبلغ من العمر 25 عامًا يُدعى **آرون بوشنيل** بهدوء نحو بوابات السفارة الإسرائيلية في واشنطن العاصمة. مرتديًا زيه العسكري، تحدث بهدوء إلى بث مباشر:

> "أنا عضو في الخدمة الفعلية في سلاح الجو الأمريكي، ولن أكون بعد الآن متواطئًا في الإبادة الجماعية. أنا على وشك القيام بفعل احتجاجي متطرف، لكن مقارنة بما يعانيه الناس في فلسطين على يد مستعمريهم، فهو ليس متطرفًا على الإطلاق. هذا ما قررت طبقة حكامنا أن يكون طبيعيًا."

بعد لحظات، أضرم النار في نفسه. وبينما كانت النيران تلتهمه، صاح مرارًا وتكرارًا: **"حرروا فلسطين!"**

توفي آرون بوشنيل بعد ساعات قليلة. لقد هلك جسده، لكن كلماته أشعلت حوارًا عالميًا حول الضمير، والتواطؤ، وتكلفة الصمت الأخلاقي.

شهيد من أجل الضمير

وصف آرون بوشنيل بالشهيد يعني الاعتراف بأنه مات من أجل حقيقة لم يعد بإمكانه إنكارها. لم يكن فعله نابعًا من اليأس، بل من الاقتناع — رفضًا جذريًا للعيش داخل النفاق الأخلاقي الذي رآه حوله.

كان بوشنيل يفهم آلية السلطة. كجندي مجند، شهد كيف يدعم الطاعة والبيروقراطية الحروب البعيدة، وكيف يُختزل معاناة المدنيين إلى إحصاءات، وكيف تقوم الأنظمة بتطهير القسوة بلغة مثل "الأمن القومي" و"الأضرار الجانبية".

لكن تحديه لم يكن علنيًا فحسب؛ بل كان شخصيًا مؤلمًا أيضًا. قبل وفاته، **تبرع بمدخرات حياته لصندوق إغاثة أطفال فلسطين**، وهي منظمة تقدم الرعاية الطبية والمساعدات للضحايا الصغار من الحرب. كما **رتب لجاره لرعاية قطته المحبوبة**، مما يضمن أن يوجه الرحمة كل قراراته حتى في فعل احتجاجه الأخير.

تكشف مثل هذه الإيماءات أن احتجاجه لم يكن رفضًا للحياة، بل دفاعًا عنها.

في الأيام التي سبقت وفاته، نشر عبر الإنترنت:

> "كثير منا يحب أن يسأل نفسه: 'ماذا كنت سأفعل لو كنت حيًا أثناء العبودية؟ أو في جنوب جيم كرو؟ أو الفصل العنصري؟ ماذا كنت سأفعل لو كانت بلدي ترتكب إبادة جماعية؟' الإجابة هي: أنت تفعل ذلك. الآن."

كان ذلك التصريح اعترافًا وتحديًا في آن واحد — مرآة تُرفع أمام مجتمع يفتخر ببصيرته الأخلاقية المتأخرة بينما يتسامح مع الفظائع المعاصرة.

تطبيع المستحيل

تحذير بوشنيل المرعب — **"هذا ما قررت طبقة حكامنا أن يكون طبيعيًا"** — لم يكن مبالغة. كان تشخيصًا. رأى عالمًا يُبرر فيه تدمير أحياء بأكملها في غزة، وتجويع المدنيين، وقتل الأطفال بلغة السياسة والدفاع.

بالنسبة له، لم يكن الرعب في العنف نفسه فحسب، بل في **مدى سهولة تبريره**. عندما تنتهك الحكومات حقوق الإنسان دون عقاب، وعندما يقبل الجمهور ذلك كضجيج خلفي للجيوسياسية، فإن الفظائع تصبح عادية بالفعل.

كان فعل بوشنيل رفضًا لقبول ذلك الطبيعي الجديد. أعلنت نيرانه: **"لا، لا يمكن أن يكون هذا طبيعيًا."**

انهيار سلطة القانون الدولي

في قلب احتجاج بوشنيل لم يكن التعاطف مع غزة فحسب، بل الخوف على مستقبل البشرية. بمجرد كسر **معايير القانون الدولي** — ضد العقاب الجماعي، أو استهداف المدنيين، أو التجويع كسلاح حربي — دون عواقب، فإن السوابق تدعو إلى انهيار عالمي.

بدا أنه يفهم أن تآكل المساءلة في نزاع واحد يهدد كل أمة بعد ذلك. عندما يصبح القانون انتقائيًا، وعندما تكون العدالة مشروطة، تصبح الأخلاق نفسها قابلة للتفاوض. كانت وفاته بذلك **صرخة أخلاقية وتحذير نبوي**: أن العالم لا يمكنه الصمود إذا كانت السلطة قادرة على القتل دون خجل.

صدى الضمير: سلالة من التحذيرات الأخلاقية

تنتمي كلمات بوشنيل إلى تقليد دائم للمفكرين الذين أصرّوا على أن **الشر يزدهر ليس بالكراهية، بل باللامبالاة**. تتردد تأملاته عبر الزمن — مع إنسانية أينشتاين، وواقعية بورك السياسية، وشهادة إيلي ويزل الأخلاقية — كل منهم يواجه سؤال التواطؤ في عصره.

عندما كتب بوشنيل:

> "كثير منا يحب أن يسأل نفسه: 'ماذا كنت سأفعل لو كنت حيًا أثناء العبودية؟ أو في جنوب جيم كرو؟ أو الفصل العنصري؟ ماذا كنت سأفعل لو كانت بلدي ترتكب إبادة جماعية؟' الإجابة هي: أنت تفعل ذلك. الآن."

كان ينضم إلى تلك السلالة — يحول بصيرة التاريخ الأخلاقية المتأخرة إلى اتهام في الزمن الحاضر.

أينشتاين: تكلفة المشاهدة

الاقتباس المنسوب غالبًا إلى **ألبرت أينشتاين**، رغم عدم التحقق منه، يلتقط معنى بوشنيل:

> "لن يدمر العالم من يرتكبون الشر، بل من يشاهدونهم دون فعل أي شيء."

أدرك كلا الرجلين أن الشر نادرًا ما يعلن عن نفسه؛ بل يتسلل إلى الحياة اليومية من خلال الاستسلام والطاعة. رفض بوشنيل أن يكون مشاهدًا. كان فعله النفي النهائي للسلبية — إعلان بأن الصمت نفسه سلاح في يد الأقوياء.

بورك: السلبية القاتلة لـ"الرجال الطيبين"

لا يزال تحذير **إدموند بورك** الشهير يتردد:

> "الشيء الوحيد الضروري لانتصار الشر هو أن يفعل الرجال الطيبون شيئًا."

يمنح رسالة بوشنيل تلك الفكرة إلحاحًا جديدًا. لم يكن "الرجال الطيبون" في عصره أشرارًا بل مواطنين، ومهنيين، وجنودًا يدعمون بهدوء أنظمة التدمير. بقوله **"أنت تفعل ذلك. الآن"**، حطم بوشنيل الوهم المريح بأن التواطؤ محايد. إنه ليس كذلك. إنه مشاركة نشطة في الضرر من خلال عدم الفعل.

ويزل: موت التعاطف

وفي كلمات **إيلي ويزل** المؤلمة من محاضرته لجائزة نوبل عام 1986:

> "نقيض الحب ليس الكراهية، بل اللامبالاة."

بالنسبة لويزل، سمحت اللامبالاة بوجود أوشفيتز؛ بالنسبة لبوشنيل، تسمح اللامبالاة باحتراق غزة. رأى كلا الرجلين أن الخطر الأكبر ليس الغضب، بل التخدير الأخلاقي الذي يسمح للفظائع بالتكشف بينما يشاهد العالم عبر الشاشات.

ينضم صوت بوشنيل إلى أصواتهم — ليس في النظرية، بل في اللهب.

الشهادة من خلال النار

عبر التاريخ، كان **الإحراق الذاتي** أشد أشكال الشهادة تطرفًا — من احتجاج ثيش كوانغ دوك الصامت في سايغون إلى الرهبان التبتيين الذين أضرموا النار في أنفسهم من أجل الحرية. يترجم كل فعل صرخة أخلاقية إلى لغة عالمية للمعاناة.

انضم آرون بوشنيل إلى تلك السلالة من الشهادة الجذرية. لم تكن نيرانه رمزًا للغضب فحسب، بل محاولة لإيقاظ الضمير المخدر لدى الأقوياء. لم يسعَ لتدمير الآخرين — بل لتذكيرنا بأن الحياة نفسها تُدمر باسمنا.

تحدث ليس عن الانتقام، بل عن التحرير — ليس عن اليأس، بل عن التضامن.

العبء الذي يتركه خلفه

تذكر آرون بوشنيل يعني تحمل مسؤولية ثقيلة. تطالب حياته بمواجهة تواطؤنا في الأنظمة التي نعيش فيها. كم منا، يسأل من خلف القبر، يستمر في قبول ما يجب أن يرعبه كـ"طبيعي"؟

لم يترك بيانًا، ولا منظمة — فقط مثال إنسان واحد رفض تطبيع الفظائع. ضمن سلامة قطته، وتبرع بمدخراته لأطفال محاصرين في منطقة حرب، وسار إلى التاريخ كعلامة استفهام حية: **ماذا ستفعل أنت؟**

تحذيره، **"هذا ما قررت طبقة حكامنا أن يكون طبيعيًا"**، ليس اتهامًا للنخب فحسب. إنه مرآة لنا جميعًا. فما يُطبّع من الأعلى يبقى فقط لأنه مقبول من الأسفل.

خاتمة: لهب يرفض الإطفاء

لم يكن فعل آرون بوشنيل الأخير نهاية بل بداية — تمزيق في نسيج الإنكار الجماعي. تذكرنا وفاته بأن الضمير لا يزال موجودًا، حتى لو دُفن تحت آلية الإمبراطورية.

كان جنديًا اختار الإنسانية على الطاعة. كان رجلاً ضمن حتى سلامة قطته بينما سار هو إلى النار. كان مواطنًا رفض قبول أن الإبادة الجماعية يمكن أن تكون "طبيعية" يومًا.

> "هذا ما قررت طبقة حكامنا أن يكون طبيعيًا."

دع تلك الكلمات تتردد في كل قاعة حكومية، وكل غرفة أخبار، وكل منزل هادئ. إنها ليست تحذيره فحسب — بل حكمنا.

تذكر آرون بوشنيل يعني رفض العيش كأن احتجاجه كان عبثًا. تدعونا نيرانه للاستيقاظ، والفعل، وإنهاء تطبيع اللا إنسانية قبل أن تلتهمنا جميعًا.